

إِطْلَاق " ما " الموصولة على العَالَمِ

الدكتور/ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العمار
قسم النحو والصرف وفقه اللغة — كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة :

الحمد لله العالم بما تخفي الصدور ، المتصرف في جميع الأمور ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ما تعاقبت الشهور والدهور، أما بعد :

فإن مفردات اللغة لها مدلولات في أصل وضعها ، وكثرة الاستعمال تثبت ذلك وتقويه ، وقلة الاستعمال تضعفه وربما تنفيه .

ومن هذه المفردات " ما " الموصولة ، حيث وضعت في الأصل على غير العالم كالجملادات والنباتات والدواب - من غير بني آدم - فهي بذلك تدل على شيء ، وهذا الشيء مسلوب صفة العلم أو العقل ، ونصوص اللغة من قرآن ، وسنة ، ونثر العرب وشعرهم ، دالة على هذا ومبينة له .

ولكن هذا الأصل قد يتغير في بعض النصوص فتقع " ما " على من يتصف بالعلم، وعلى من يعقل من بني آدم ، وهذا التغير لا يبطل الأصل ، ولا يخرم القاعدة ، وهو موضع خلاف بين النحويين ، وقد حاولت من خلال هذه السطور استجلاء مواقفهم ، بذكر أقوال أئمتهم وآرائهم .

وبعد انتهاء البحث عنونته بـ(إطلاق " ما " الموصولة على العالم) .

أرجو أن أكون قد وفقت في بحث المسألة ، وعرض الآراء ، ومناقشتها ، والموازنة بينها ، واختيار الرأي الذي انتهيت إليه حسب ما يقتضيه الدليل والشاهد.

والله المعين وهو حسبي .

من المبهمات في العربية الموصول ، ويتبين إجمامه بالصلة ، والموصول قسمان : اسمي وحرفي ، والاسمي ضربان : خاص ومشترك ، والمشارك ستة أسماء هي : " مَنْ " و " ما " و " أل " و " أي " و " ذو " و " ذا " ، وحديثي مقصور على " ما " من جهة دلالتها ، فالمشهور عند أهل اللغة أنها لغير العاقل وقد تكون له وللعاقل بقرائن ومسوغات - كما سيأتي - .

وهنا سؤال مفاده هل تقع " ما " على من يعلم ؟
وقبل الإجابة عن هذا السؤال تجدر مناقشة نص حديثي جاء فيه ما يشعر بعدم ذلك.

قال الآمدي (ت ٤٦٧هـ) عندما ذكر شبه أصحاب العموم النصية : " أما النصية فمنها ... ومنها أنه لما أنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء / ٩٨] قال ابن الزبيري (ت نحو ١٥٠هـ) : " لأخصمنا محمداً " ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : " وقد عُبِدَت الملائكة والمسيح ، أفتراهم يدخلون النار؟ " .

واستدل بعموم " ما " ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، بل نزل قوله تعالى غير منكر لقوله ، بل مخصصاً له بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء / ١٠١] ^(١) .

ثم أجاب الآمدي عن هذه الشبهة بقوله :

" وأما قصة ابن الزبيري فلا حجة فيها - أيضاً - ؛ لأن سؤاله وقع فاسداً حيث ظن أن " ما " عامة فيمن يعقل ، وليس كذلك ، ولهذا قال النبي صلى الله

(١) الإحكام ٢ / ١٨٦ .

عليه وسلم منكراً عليه: " ما أجهلك بلغة قومك، أما علمت أن "ما" لما لا يعقل" ^(١).

وقصة ابن الزبيري ذكرها الطبراني ^(٢) (ت ٣٦٠هـ) والهيثمي ^(٣) (ت ٨٠٧هـ)، كما أوردها بعض المفسرين كالطبري ^(٤) (ت ٣١٠هـ) والبخاري ^(٥) (ت ٥١٦هـ).

والزمخشري ^(٦) (ت ٥٣٨هـ) وابن كثير ^(٧) (ت ٧٧٤هـ) والشوكاني ^(٨) (ت ١٢٥٠هـ) والواحدي (ت ٤٦٨هـ) في أسباب النزول ^(٩)، ولم يرد فيما ذكره جميعاً قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ما أجهلك بلغة قومك...".

وقد نبه على عدم صحة هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) - رحمه الله - فقال: " اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه القصة لابن الزبيري: ما أجهلك بلغة قومك، فإني قلت: " وما تعبدون " وهي لما لا يعقل، ولم أقل: ومن تعبدون اهـ .

(١) المرجع نفسه ١٩٦/٢ وينظر ٣٤/٣ وحاشية الصبان على شرح الأشموني ١٥٣/١ حيث قال الصبان: " هذا إن صح كان نصاً في المسألة".

(٢) المعجم الكبير ١٢ / ١١٨ و ١١٩ برقم ١٢٧٣٩.

(٣) مجمع الزوائد ٧ / ٦٨ و ٦٩.

(٤) جامع البيان ١٦ / ٤١٧ و ٤١٨.

(٥) معالم التنزيل ٥ / ٣٥٦ و ٣٥٧.

(٦) الكشف ٣ / ١٣٥ و ١٣٦.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٩٩ و ٦٠٠.

(٨) فتح القدير ٣ / ٤٣١.

(٩) ص ١٧٥.

وهو شيء لا أصل له ، ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند " (١) .
وإذا تبين لنا عدم صحة هذه الرواية من عالم نذر نفسه لخدمة سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيجدر بنا قبول ذلك ، والبحث عن دلالة " ما " عند
أهل اللغة .

فأقول - وبالله التوفيق- قال سيبويه (ت ١٨٨هـ) : (وما مثلها - أي
مثل مَنْ - إلا أن " ما " مبهمة تقع على كل شيء " (٢) .

وأما المبرد (ت ٢٨٥هـ) فكرر الحديث عنها في مقتضبه (٣) وبين أنها تقع
على ذات غير الآدميين كالفرس والحمار والمال والبر ، وعلى صفات الآدميين
كالشرف والوضاعة والطول والقصر .

كما بين أنها قد تقع على الآدميين بشرط كون الحديث عن الجنس كالرجل
أو تجعل الصفة في موضع الموصوف كأن تقول : رأيت ما عندك ؟
فيقال : رجل أو عاقل أو حليم ، ولا يقال : زيد ولا عمرو لعمومها
وإبهامها .

وبين الفراء (٤) (ت ٢٠٧هـ) أن العرب لا تكاد تجعل " ما " للناس ، وعليه
فتقول : إنما ضربت أخاك بالنصب ، ولا تقل : " أخوك " بالرفع ؛ لئلا يكون
المعنى : إن الذي ضربت أخوك ، فتقع " ما " على الأخ ، فإذا أريد بالكلام
الذي بعد " ما " وصلتها غير الناس جاز الوجهان فتقول : إنما سكنت دارك ،
بالنصب أو " دارك " بالرفع .

(١) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٦/٣ .

(٢) الكتاب ٣٠٩/٢ .

(٣) المقتضب ٤١/١ و ٤٨ ، ٢٩٦ و ٥٢/٢ ، ٦٣/٣ ، ١٨٥/٤ و ٢١٧ و ٢١٨ .

(٤) معاني القرآن ١٠٢/١ وانظر معاني القرآن للأخفش ٢١٤/١ و ٢١٥ .

إلا أن الفراء استدرك فقال: " وقد تجعل العرب " ما " في بعض الكلام للناس، وليس بالكثير ، وفي قراءة عبد الله ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ وَالذَّكْرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ ^(١) [الليل / ٣ و ٢] وفي قراءتنا ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكْرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ فمن جعل " ماخلق " للذكر والأنثى جاز أن يخفض " الذكر والأنثى " كأنه قال : والذي خلق الذكر والأنثى ^(٢)، ومن نصب " الذكر " جعل " ما " و " خلق " كقوله : وَخَلَقَهُ الذَّكْرَ وَالْأُنْثَى ، يوقع " خلق " عليه ، والخفض فيه على قراءة عبد الله حسنٌ ، والنصب أكثر ^(٣).

وأشار الأخفش (ت ٢١٥هـ) إلى أن " ما " لغير العاقل ^(٤)، إلا أنه أوقعها على الإنسان فقال في قوله تعالى : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين / ٧] : " جعل " ما " للإنسان وفي هذا القول يجوز : ما جاءني زيدٌ ، في معنى : الذي جاءني زيد ^(٥).

قال أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) : " وزعم الفراء والأخفش أن المعنى : فمن يكذبك بعد بالدين ، قال أبو جعفر : وهذا لا يعرج عليه ، ولا تقع " ما " بمعنى " من " إلا في شذوذ ^(٦).

وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) : " " ما " لغير العاقل تقول : ... و ما مرَّ بك من الإبل " ^(٧).

(١) ينظر المحتسب ٢ / ٣٦٤.

(٢) أي على البدلية من محل " ما ".

(٣) معاني القرآن ١٠٢/٢ وانظر ص ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٧٠ / ٣.

(٤) معاني القرآن ٣٧/١ و ٥٩ و ٥٩ / ٢ و ٤١٦.

(٥) معاني القرآن ٥٨١/٢.

(٦) إعراب القرآن ٧٣٦/٣ وينظر معاني القرآن للفراء ٢٧٧ / ٣.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص ٥٣٣.

ومن فسر " ما " بـ " مَن " أو بـ " الذي " وهي للعالم أبو عبيدة^(١)
 (ت ٢١٠هـ) ومكي^(٢) (ت ٤٣٧هـ) وابن خروف (ت ٦٠٩هـ) الذي نص
 على أنها عند سيويه والمحققين بمنزلة " الذي " و " التي " تقع على ما لا يعقل ،
 ومن يعقل ووافقهم على ذلك ، مما حدا بأبي حيان إلى القول " وإطلاقها على
 أحاد من يعقل هو مذهب أبي عبيدة وابن درستوية (ت ٣٤٧هـ) ومكي بن أبي
 طالب ، ومن متأخري أصحابنا الأستاذ أبو الحسن بن خروف ، وزعم أنه
 مذهب سيويه^(٣) .

وابن خروف عزا ذلك إلى سيويه ؛ لأن عبارة سيويه عامة تقبل فهم ابن
 خروف فهو يقول : " ما " مبهمة تقع على كل شيء " .

واستدل من يرى وقوع " ما " الموصولة على العالم بعدة أدلة من القرآن
 الكريم وغيره ، وقد تكفل الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة^(٤) بجمع الآيات
 القرآنية التي وقعت فيها " ما " على العالم فأربت على ستين آية ، وسأذكر
 نماذج من تلك الآيات والشواهد يتبين من خلالها موقف القائلين بإمكان وقوع
 " ما " على العالم .

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۖ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۖ وَنَفْسٍ وَمَا
 سَوَّاهَا﴾ [الشمس / ٥ - ٧] .

(١) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٠ و ٣٠١ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٨ و ٥٠٦ .

(٣) التذيل والتكميل ٣/ ١٢٩ .

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ق ١ ج ٣ ص ٤٣- ٥٠ ، هذا وقد أفرد الشيخ لـ " ما " المحتملة
 للمصدرية ولاسم الموصول مبحثاً خاصاً ص ٥١- ٥٦ .

و قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل/ ٣].

و قال تعالى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون/ ٣ و٥].

وقال تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الزمر/ ٨].

فـ " ما " في هذه الآيات الست واقعة على " الله " ؛ لأنه هو الذي بين السماء ، وطحا الأرض ، وسوى النفس ، وخلق الذكر والأنثى ، وصرف إليه الرسول صلى الله عليه وسلم عبادته ، ودعاه الإنسان عند الضر .

وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص / ٧٥] فـ

" ما " أطلقت على نبي الله آدم — عليه السلام ، وقال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران / ٣٥] .

قال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلثَ وَرُبْعَ﴾

[النساء/ ٣].

و قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون / ٦]

والمعارج / ٣٠].

و قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴿٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ

رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء / ١٦٥ و١٦٦].

فـ " ما " في الآيات الأربع أطلقت على الأنثى من بني آدم وحكى أبو زيد

(ت ٢١٤هـ) " سبحان ما سبى الرعد بحمده وسبحان ما سخر كن لنا ^(١) " .

والمعنى : مَنْ سبى الرعد بحمده ومن سخر كن لنا ، وهو الله جلّ وعلا .

(١) ينظر المقتضب ٢ / ٢٩٦ وشرح المفصل لابن يعيش ٤ / ٦٥٥ .

هكذا يرى القائلون بإطلاق " ما " على العالم ومنهم الفراء وأبو عبيدة والأخفش وابن درستويه وابن خروف الذي نسب هذا القول إلى المحققين ومنهم سيويه .

إلا أن المانعين تأولوا تلك النصوص بتأويلات مختلفة يخرج منها القارئ بالشروط التي أجازوا بها وقوع " ما " على العالم وربما حملوا " ما " على المصدرية وهو الأكثر .

فآيات " الشمس " حملت على المصدرية على تقدير : والسماء وبنائها ، والأرض وطحوها ، والنفس وتسويتها ، فراراً من إيقاع " ما " على العالم ، بل إن المبرد قال : إن هذه مصادر وإن دلت على غيرها ممن يملك ، وألح إلى أن هذا الوجه هو الذي عليه النحويون دون الأول^(١) .

وفي آية " الليل " قيل كذلك^(٢) ، أي : وخلقته ، وكذا الأمر في آيتي " الكافرون " أي : عبادتي^(٣) ، وقيل : من قبيل المشاكلة^(٤) أو لجهلهم بالله أو لمخالفتهم رسول الله^(٥) .

وكذا في آية الزمر إذ قدروا : نسي دعاءه إلى الله من قبل^(٦) ، وفي آية " ص " رأى السهيلي (ت ٥٨١هـ) أن الموضع لـ " ما " لا لـ " من " للدلالة على أن تكبر إبليس وعدم سجوده لمخلوق مثله غير مقبول ، إذ التكبر للمخالق وحده ، فوبخه الله وبكنه بسبب عصيانه وتكبره على ما لم يخلقه وإنما تولى خلقه

(١) المقتضب ٥٢/٢ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١٠٢/١ .

(٣) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ١٧٤/١ .

(٤) ينظر نتائج الفكر ص ١٨٤ والتذيل والتكميل ١٣١/٣ .

(٥) ينظر نتائج الفكر ص ١٨٣ .

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٤١٦/٢ .

رب العالمين ، لذا شُرِفَ وأُمِرَتِ الملائكة بالسجود له، فسجدت وعصى إبليس ولو قيل : " لمن خلقت " لكان استفهاماً مجرداً من التوبيخ والتبكي ، ولتوهم أن الأمر بالسجود لآدم بسبب كونه عاقلاً أو لعله في ذاته وعينه ، وليس الأمر كذلك^(١).

أو تحمل على المصدرية والمعنى : ما منعك أن تسجد لخالقي ، أي : لمخلوقي^(٢).

وآية " آل عمران " حملت على الإبهام فما في بطن مريم - عليها السلام - غير معلوم أذكر أم أنثى^(٣) ؟
وآيات " النساء " و " المؤمنون " و " الشعراء " حملت على أنواع من يعقل^(٤).

وحكاية أبي زيد حملت فيها " ما " على المصدرية الظرفية والمعنى : سبحانه الله مدة تسبيح الرعد ومدة تسخير كن^(٥).

مما تقدم يتبين أن بعض المانعين لا يمنعون مطلقاً ، وإنما لهم شروط ومعايير إذا وجدت فـ " ما " عندهم تقع على العالم ، لكن لا يقصد إلى ذلك قصداً ، فإن جاء ما ظاهره ذلك حملت " ما " على المصدرية أو على محمل آخر يلحظ من المقام أو من السياق والقرائن.

(١) نتائج الفكر ص ١٨٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١٠٢/١.

(٣) ينظر تعليق الفرائد للدمامي ٢٥٤/٢.

(٤) ينظر التذييل والتكميل لأبي حيان ١٣٣/٣ وأوضح المسالك ١٥٠/١ وشرح الجمل لابن عصفور

١٧٣/١.

(٥) ينظر شرح الجمل لابن عصفور ١٧٤/١ والتذييل والتكميل ١٣٠/٣.

وقد سبق ذكر شرطي المبرد لوقوع " ما " على العاقل وهما : إرادة الجنس ،
أو قيام الصفة مقام الموصوف.

وابن مالك(ت٦٧٢هـ) يقول : " و " ما " في الغالب لما لا يعقل وله مع من
يعقل ولصفات من يعقل وللمبهم أمره^(١) .

وأبو حيان(ت٧٤٥هـ) يقول : " والذي صححه أصحابنا أن " ما " لا تقع
على آحاد أولي العلم إلا في موضعين : أحدهما : الاستثبات عمن يفعل والآخر
: الاستفهام عن صفات من يعقل^(٢) " وفي موضع آخر يقول: " وأبي أصحابنا
ذلك وتأولوا ما استدل به المخالف^(٣) " .

وقد أخذ أبو حيان^(٤) على ابن مالك قوله : ولصفات من يعقل ، وقال: إنها
عبارة الفارسي^(٥) (ت٣٧٧هـ) ، أما أصحاب أبي حيان فعبروا عن ذلك بأنواع
من يعقل والغريب أن أبا حيان استعمل صفات من يعقل في الموضع الثاني من
النص السابق .

وأصحاب أبي حيان هم البصريون كسيبويه والمبرد ومن سار على نهجهم
كالزجاج(ت٣١٠هـ) وابن السراج(ت٣١٦هـ) والزرجاني(ت٣٣٧هـ)
والفارسي وابن جني(ت٣٩٢هـ) وغيرهم ، وكأني بأبي حيان يرمي إلى
المذهب البصري لا إلى كل بصري بعينه ؛ لأن البصريين ليسوا على درجة

(١) التسهيل ص ٣٦ .

(٢) التذيل والتكميل ١٣٢/٣ .

(٣) المرجع السابق ١٢٩/٣ .

(٤) المرجع السابق ١٣٣/٣ .

(٥) ينظر البغداديات ص ٢٦٣ .

واحدة في هذه المسألة ، فسيبويه فهم ابن خروف من نصه أنه يرى وقوع "ما" على آحاد أولي العلم ، والزجاج حمل آيات سورة الشمس وآية سورة الليل على المصدرية وبدأ به ثم قال : وقيل : "معنى" ما "هاهنا معنى" مَنْ "المعنى : والسماء والذي بناها ... فأقسم الله - عز وجل - بهذه الأشياء العظام من خلقه ، لأنها تدل على أنه واحد ، والذي ليس كمثله شيء" ^(١).

فالزجاج لم يعترض على الموصولية وإنما أورد ذلك بصيغة التمرّض "وقيل". وابن السراج ^(٢) يتابع المبرد وينقل كلامه .

والزجاجي يقول : "فأما" ما " فإنها تقع على ما لا يعقل " ^(٣).

والفارسي ^(٤) يحمل "ما" على "مَنْ" ويبدأ به ثم يقول : ويجوز أن تكون بمعنى المصدر ، ويتابع المبرد وابن السراج .

وابن جني يترع مترعاً غريباً ، ويرتكب شططاً ، إذ رأى أن المؤنث إذا قيس بالمذكر تنحط درجته ، فالمرأة بالنسبة إلى الرجل مال أو متاع .

وإليك نص كلامه قال : "قوله عز اسمه : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون ٦ / والمعارج ٣٠] وقوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشعراء ١٦٥ و ١٦٦] ونحو

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٢/٥.

(٢) ينظر الأصول ١٣٥/٢ و ١٣٦.

(٣) الجمل ص ١٢ وينظر شرح الجمل لابن خروف ٢٩١/١.

(٤) ينظر البغداديات ص ٢٦٥.

ذلك ، يجوز أن يكون إنما وقعت " ما " هاهنا على من يعقل من حيث كان مؤثناً ، وليست للمؤنث عصمة المذكر ، فكأن المرأة لتأنيثها - بالإضافة إلى الرجل بتذكيره - مال أو متاع ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ ﴾ [البقرة / ٢٢٣] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " المرأة ضلع عوجاء " ^(١) وهذا وإن كان مثلاً فقد أُشِمَّ رائحةً مما نحن عليه ؛ لأنه عفي عنها كما يعفى عن البهائم ، وكذا قولهم : " المرأة لحم على وَضَم " ^(٢) وهذا ونحوه مما يكاد يخرج به المؤنث عن تمام العقل واستحكامه ، ولم يذكره أحد من أصحابنا ، وفيه ما تراه من صحة معناه " ^(٣) .

انتهى كلام ابن جني ، وكأني به يشير - أيضاً - إلى مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَرِجَالُ قَوْمُوتٍ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء / ٣٤] .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة " ^(٤) .

(١) يشير إلى حديث " إن المرأة خلقت من ضلع... " ينظر صحيح مسلم كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء ٦١-٦٢ ص ٥٥٥ .

(٢) الوَضَم ، محركة : الخشب أو الحصر وكل ما يوضع عليه اللحم دون الأرض ، وجاء في اللسان " وضَم :- " (وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : " إنما النساء لحم على وضَم إلا ما ذبَّ عنه ") ، ومنه أخذ المثل : إن النساء لحم على وضَم .
ينظر مجمع الأمثال للميداني ١٩/١ .

(٣) الخطاريات ص ٥١ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الرضاع ، باب ١٧ ص ٥٥٥ رقم ٥٩ (١٤٦٧) .

وقوله : " ... وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلبَ لديّ لبُّ منكن ... " ^(١) .

وهذه النصوص وإن كان فيها رفعة للرجل فلا يؤخذ منها دونية المرأة إلى حد المتاع الساقط ، والمال المبذل في أيدي الرجال ؛ لأن الإسلام كرم المرأة وأعلى شأنها ، بعد أن كانت في الجاهلية معدودة من سقط المتاع ، وعليه فهذه النصوص وأمثالها لا تخرج المرأة من دائرة العقلاء ، أو تحط من قدرها ، فللرجل خصائصه ، وللمرأة خصائصها ، فإن ضعفت في جانب قويت في آخر ، والنساء شقائق الرجال ^(٢) .

والحمد لله أن أحداً من أصحابه قبله لم يذكره ؛ لأن ما ذكره نكتة غير محمودة .

وقد تأسى الزمخشري بابن جني فقال: " ما طاب " ما حلّ ... وقيل " ما " ذهاباً إلى الصفة ؛ ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ " [النساء / ٣] ^(٣) .

ولم يرتض أبو السعود (ت ٩٨٢هـ) هذا فقال: " ما " موصولة أو موصوفة ما بعدها صلتها أو صفتها أو ثرت على " من " ذهاباً إلى الوصف وإيداناً بأنه .

المقصود بالذات والغالب في الاعتبار لا بناء على أن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لإخلاله بمقام الترغيب فيهن ، وقرأ ابن أبي عتبة " من طاب " ^(٤) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ٣٤ رقم ١٣٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة باب في الرجل يجد البلة في منامه ٦١/١ ومسند الإمام أحمد الحديث رقم

٢٦٧٢٥ ص ١٩٤٧ .

(٣) الكشف ١/ ٤٦٧ .

(٤) إرشاد العقل السليم ١/ ٦٤٣ .

وقراءة ابن أبي عبلة و إن كانت شاذة مرجح لإرادة " مَنْ " وصحة وقوع
" ما " على العالم .

وأبو جعفر النحاس^(١) يرى أن " ما " لا تقع بمعنى : " مَنْ " إلا في شذوذ ،
ووجه ما رأى أنه مخالف لذلك فقال في قوله تعالى : ﴿ فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ

مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء / ٣] يقال : كيف جاءت " ما " للآدميين؟

ففي هذا جوابان : قال الفراء^(٢) : " ما " هاهنا مصدرية وهذا بعيد جداً ، لا
يصح فانكحوا الطيبة ، وقال البصريون : " ما " تقع للنعوت ، كما تقع " ما "
لما لا يعقل ، يقال : ما عندك؟

فيقال : ظريف وكريم ، فالمعنى فانكحوا الطيب من النساء ، أي : الحلال ،
وما حرمه الله فليس بطيب " ^(٣) .

وقال في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل
عمران / ٣٥] .

" منصوب على الحال ، وقيل : هو نعت لمفعول محذوف ، أي : نذرت لك
ما في بطني غلاماً محرراً " .

ففي آية " النساء " استبعد حمل " ما " على المصدرية ، وكأنه ارتضى قول
البصريين بإطلاق " ما " على صفات من يعقل .

وفي آية " آل عمران " رجح الحالية ، وذكر النعت وقدر المنعوت ، وهو
" غلام " والغلام من العقلاء .

(١) إعراب القرآن ٣/ ٧٣٦ .

(٢) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٣) إعراب القرآن ١/ ٣٩٣ .

والتأمل في آية آل عمران يتبين له وقوعها على العاقل ذكراً كان أو أنثى فما في البطن لن يخرج عن هذين النوعين ، والحمل على الإبهام كما أوماً إليه الدماميني (ت ٨٢٧هـ) بقوله : " المراد أنها جعلت ما في بطنها وثمره فؤادها خادماً للمسجد ، ولم تقصد إذ ذاك ذكوره من أنوثته " ^(١) ضرب من التأويل لا يمنع الحمل على الظاهر، كيف والله يقول : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

وَضَعْتُهَا أَنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ [آل عمران ٣٦] ؟

ولو قال قائل : إن ما في البطن لا يُذكر فهو داخل في عداد غير العقلاء ، لقليل له : أنت مدع ومطالب بالدليل ، ولا أحد من العقلاء يقول بهذا ، فالصغير غير المميز لا يكلف ، لكن لا يخرج من دائرة العقلاء ، وهو من بني آدم الذين كرمهم الله بالعقل كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء ٧٠] .

قال ابن كثير : " يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكرمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ... وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به " ^(٢) .

والسهيلي هداه فكره إلى ملاحظ بلاغية صرف بها " ما " عن العالم في بعض النصوص التي استشهد بها المحيزون فقال : " فإن قيل : أليس قد وقعت على ما يعقل في مواضع من القرآن وكلام العرب خلافاً لما نصَّ عليه النحويين كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ [ص ٧٥] وكقوله سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس ٥] وكقوله : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون ٣٥] قلنا : هي في كل هذا على أصلها من الإبهام والوقوع على الجنس العام ، لم يُرد بها ما يُراد بـ " مَنْ " من التعيين لما يعقل والاختصاص به

(١) تعليق الفرائد ٢/ ٢٥٤ وتنظر حاشية على التصريح ١٣٥/١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢٨ .

دون غيره ، ومن فهم جوهر الكلام عرف ما نقوله ، واستبان له من الحق سبيله " (١) .

ثم شرع في الحديث عن الآيات الثلاث ، وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره في آية ص .

أما آية الشمس فقال عنها : " لأن القسم تعظيم للمقسّم به ، واستحقاقه للتعظيم من حيث بنى وأظهر هذا الخلق العظيم الذي هو السماء ، ومن حيث سواها بقدرته وزينها بحكمته ، فاستحق التعظيم وثبت له القدرة كائناً ما كان هذا المعظم ، فلو قال : " مَنْ بناها " لم يكن في اللفظ دليل على استحقاقه للقسم به من حيث اقتدر على بنائها ولكن المعنى مقصوراً على ذاته ونفسه دون الإيماء إلى أفعاله الدالة على عظمته المنبئة عن حكمته ، المفصحة لاستحقاقه التعظيم من خليقته " (٢) .

بل إنه وصف القائلين بأن " ما " مصدرية بالجهالة ، وعدم التوفيق لصناعة النحو ، وعدم الرزق لفهم التأويل (٣) .

وذكر في آية " الكافرون " ثلاثة أوجه إثبات أن " ما " على بابها (٤)
الأول : جهلهم بمعبود الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانوا يظنون أنهم يعبدون الله .

الثاني : اشتهاؤهم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم حسداً له وأنفة من اتباعه ، فهم لا يكرهون ذات المعبود وإنما يكرهون اتباع الرسول وإن كان معبوده هو الحق سبحانه .

(١) نتائج الفكر ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٣ ، وسبق أن المرد يقول : حمل " ما " على المصدرية هو الذي عليه النحويون المقتضب ٥٢/٢ .

(٤) نتائج الفكر ص ١٨٣ و ١٨٤ .

الثالث : أن هذا النص محمول على ازدواج الكلام ومقصود فيه المشاكلة ، فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان .

وحرص السهيلي على المعاني التي جادت بها قريحته وربط بينها وبين لفظ " ما " فقال : " ما " اسم مبهم في غاية الإبهام حتى إنها تقع على كل شيء^(١) وتقع على ما ليس بشيء ؛ ألا ترى أنك تقول : إن الله عالم بما كان وما لم يكن ، وما لم يكن معدوم ، والمعدوم ليس بشيء ، فلفرط إبهامها لم يجز الإخبار عنها حتى توصل بما يوضحها ... ولا يجوز أن توجد إلا واقعة على جنس تتنوع منه أنواع ؛ لأنها لا تخلو من الإبهام أبداً ولذلك كان في لفظها ألف آخرة ، لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم ، مشاكلة لاتساع معناها في الأجناس ، فإذا أوقعوها على نوع بعينه ، وخصوا ما يعقل وقصروها عليه أبدلوا الألف نوناً ساكنة فذهب امتداد الصوت ، وصار قصراً للفظ موازناً لقصر المعنى^(٢) .

ولي مع كلام السهيلي السابق وقفات :
الوقفة الأولى : وصفه القائلين بأن " ما " مصدرية في الآيات التي أوردها بالجهل ، وعدم الفهم ، وعدم التوفيق لصناعة النحو .
وهذا وصف لا مسوغ له ، وغير مقبول ؛ لأن الرأي لا يخطأ برأي آخر ، والقائلون بأن " ما " مصدرية علماء لهم مكانتهم ، ومنهم من هو متقدم على السهيلي ، والحق أن الفضل للمتقدم .
وكان الأجدر بالسهيلي أن يتعد عن مثل هذه الكلمات الجافية والنايبة في حق إخوانه من العلماء ، وكان في غنى عن ذلك لو وصف الرأي المخالف بالبعد مثلاً .

(١) هذا قول سيويه ينظر الكتاب ٣٠٩/٢ .

(٢) نتائج الفكر ص ١٨٠ و١٨١ .

الوقفة الثانية : قوله : إن الألف في " ما " فيها مد واتساع في هواء الفم
مشاكلة لاتساع معناها في الأجناس ... إلخ .

وهذا اجتهد منه ، وقال بمثل هذا في " لن " و " لا " فرأى أن " لا " لا " لام
بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضيق النفس فأذن امتداد لفظها
بامتداد معناها، و " لن " بعكس ذلك ^(١).

وأقول : الضميران " أنا " و " نحن " الثاني منهما أعم من الأول مع أن
الأول فيه ألف يمتد بها الصوت عند الوقف وفي الضرورة ، وفي لغة من يشبها
وصلاً ووقفاً ^(٢)، فالقاعدة - كما يظهر - غير مطردة.

الوقفة الثالثة : قوله : ولفرط إبهامها لم يجز الإخبار عنها حتى توصل بما
يوضحها ... إلخ .

هذا اعتراف منه بأن تفسيرها كامن في صلتها ، والصلة قد تكون لغير العالم
وقد تكون للعالم - كما مرّ في النصوص السابقة .

الوقفة الرابعة : قوله : ولا يجوز أن توجد إلا واقعة على جنس تتنوع منه
أنواع ... إلخ .

هذا قول فيه نظر من جهة إطلاقه وعمومه ، فمن النصوص السابقة ما
جاءت فيه " ما " على غير ما ذكر السهيلي ، وإن كان سيؤولها وفق مراده ،
أقصد آيتي

" الكافرون " وآية " آل عمران " وآية " ص " مثلاً.

الوقفة الخامسة : لقد نظر السهيلي إلى مبدأ التعظيم عند تفسيره لقوله تعالى

(١) نتائج الفكر ص ١٣١ .

(٢) ينظر : الكتاب ٢/٢٧٩ وسر الصناعة ٢/٧٢١ وارتشاف الضرب ٣/٢٧٢ و٢٧٣ .

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا﴾ وأن الصنعة العظيمة تدل على صانع عظيم ، وهذا كلام جيد لا مرأى فيه ، ولكنه ليس بلازم على كل حال ، وما المانع من توجيه التعظيم إلى الصانع مباشرة في بعض المواطن؟!
 الوقفة السادسة : قوله : إن الموضع لـ " ما " لا لـ " من " في قوله تعالى
 ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ﴾ للدلالة على عدم قبول تكبر إبليس ... إلخ.

لا شك أن المقام مقام إنكار وتوبيخ لإبليس اللعين ، ولكن لماذا ينصرف المعنى إلى هذا وحده ؟ وقد قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه / ١١٦ و ١١٧].

فذكر آدم - عليه السلام - مرتين ، وأخبر أنه عدو له ولزوجه "حواء" وأظهر المقصود بـ " ما " وهو " آدم " - عليه السلام - والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

الوقفة السابعة : إصراره على التماس معنى يخرج " ما " من وقوعها على العالم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فالجهل بالمعبود ، واشتهاء مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وازدواج الكلام ، ثلاثة أوجه ارتضاها السهيلي ، والذي أراه أن قوله في الوجه الثالث " فاستوى اللفظان - " ما تعبدون " ، " ما أعبد " - وإن اختلف المعنيان " دليل على أن الجهل بالمعبود ، واشتهاء مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم معنيان من المعاني الواردة في تفسير " ما " وليس القول القاطع في ذلك بدليل أن السهيلي لجأ إلى ازدواج الكلام

وطلب المشاكلة ، ووصف من يحمل " ما " على المصدرية بالجهل ، ولو أنه حمل الآية على ظاهرها - إذ لا مانع - لكان قولاً متجهاً .

قال ابن كثير : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شرك له ، فما هاهنا بمعنى " مَنْ " ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : ولا أعبد عبادتكم ، أي : لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ^(١) .

وبعرض ما تقدم يمكن الخروج بالتصور الآتي :

١- أصل وضع " ما " على الإبهام ، لذا قال سيبويه : " ما مبهمة تقع على كل شيء ، وعبارته هذه فيها عموم جعل أكثر من جاء بعده يحملها على أن " ما " لا تقع إلا على غير العالم ، وجعل بعضهم كابن خروف يرى أن سيبويه يرى وقوع " ما " على العالم .

٢- من النحويين من يرى عدم وقوع " ما " على العالم ، وإذا جاء من ذلك شيء التمس له مخرجاً وهم الفئة الكثيرة ، ويليه من يميز وقوعها على العالم بالتأويل .

٣- من النحويين من يرى جواز وقوع " ما " على العالم ، وأنها بمعنى " مَنْ " من غير تأويل وهم الفئة القليلة .

٤- من النحويين من رأى أن حمل " ما " على " مَنْ " شاذ ، وهو أبو جعفر النحاس .

٥- من النحويين من ذهب به التأويل إلى إخراج الإناث من بني آدم من دائرة العقلاء وهو ابن جني وتابعه الزمخشري ، وأرى أن هذا بدع من القول ، وإجحاف في حق شقائق الرجال .

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٩٢/٧ .

٦- من النحويين من وَسَم من يحمل " ما " على المصدرية في بعض النصوص بالجهل وعدم التوفيق ، وهو السهيلي ، وقوله هذا غير مرغوب فيه .

كما أنه أتعب نفسه من أجل الظفر بتأويل يحمل عليه ما وقعت فيه " ما " على العالم ، وأرى أن هذا من قبيل المبالغة في التأويل ، كما أنه ربط بين لفظ " ما " ومعناها وأرى أن ما ذكره غير مطرد .

٧- أن تأويل جميع النصوص القرآنية التي استشهد بها وإن كان مقبولاً إلا أنه ليس ملزماً .

٨- أن احترام الآراء مطلب عزيز ، وآراء العلماء لا تنكر إذا خالفت آراء أخرى ، فكلٌ مجتهد ، ولكل مجتهد نصيب .

٩- أن ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من قوله : (" ما " لما لا يعقل) غير صحيح ، كما أبان ذلك ابن حجر .

١٠- أن الإصرار على أن " ما " إنما وضعت لغير العالم هو الذي ألبأ الكثير من النحويين إلى التأويل والمبالغة فيه .

١١- أن استعمال " العالم " أولى من " العاقل " لاستعمالها فيما يعود على الباري جلّ وعلا .

١٢- أن المرجع في فهم القضية هو الكلام العربي ، وما قرره العلماء الأفاضل ، وما ينضم إلى ذلك من قرائن لفظية ومعنوية ، ودلالات حال .

وبناء على هذا جاء تأويل معظم النحويين للنصوص التي وقعت فيها " ما " على العالم ، فأدخلوها ضمن أنواع من يعقل ، أو صفات من يعقل ، أو اجتماع العاقل مع غيره ، أو تتركب العاقل منزلة غير العاقل ، أو إرادة الجنس ، أو قصد

المشاكلة ، أو الإبهام ، و هذا كله فرارٌ من القول بأن " ما " يمكن أن تقع على العالم .

والذي أنهى إليه في هذه القضية هو ما صرح به ابن مالك والرضي (ت ٦٨٦هـ) و البعلي (ت ٧٠٩هـ) وغيرهم .

قال ابن مالك : " و " ما " في الغالب لما لا يعقل ، واحتترزت بقولي " في الغالب " من نحو قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ ومن قول العرب : " سبحان ما سخر كن لنا " ومجيئها لما لا يعقل كثير ^(١).

فابن مالك يرى أن هناك نصوصاً اتضح فيها حمل " ما " على العالم ، واستبعد جانب التأويل فيها .

وقال الرضي : " و " ما " في الغالب لما لا يعقل ، وقد جاء في العالم قليلاً ^(٢).

وقال محمد البعلي : " وأما " ما " فأكثر إطلاقها على غير من يعقل وقد تطلق على من يعقل ^(٣).

ومن النصوص الواضحة في هذا إضافة إلى ما ذكر ابن مالك قوله تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء / ٢٣] وقوله ﴿ وَلَا أَنتُمْ

عَبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون / ٥٣] .

وهذا هو الرأي المعتدل وإن أباه المخالفون وتأولوا النصوص بما يسائر آراءهم .

(١) شرح التسهيل ٢١٧/١ وينظر شرح الكافية الشافية ٢٧٦/١ .

(٢) شرح الكافية ٥٥/٣ .

(٣) الفاخر في شرح حمل عبد القاهر ٧٧٩/٢ .

لذ نرى الآمدي يقول : " وهي وإن أطلقت على من يعقل كما في قوله :
﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَدَهَا ۖ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَهَا ۖ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَهَا ۖ ﴾
[الشمس ٥-٧] .

فليس حقيقة بل مجازاً ، ويجب القول بذلك جمعاً بينه وبين قوله صلى الله عليه وسلم : " أما علمت أن " ما " لما لا يعقل " ، ولما فيه من موافقة المنقول عن أهل اللغة في ذلك " (١) .

ويتراجع قليلاً عن هذا ويبين أن الغاية مما ذكر من النصوص " جواز إطلاق " ما " على من يعقل ويعلم ، ولا يلزم من ذلك أن تكون ظاهرة فيه ، بل هي ظاهرة فيمن لا يعقل ، ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن الزبير لما ذكر ما راداً عليه بقوله : " ما أجهلك بلغة قومك أما علمت أن " ما " لما لا يعقل و " من " لمن يعقل " ولا يخفى أن الجمع بين الأمرين والتوفيق بين الأدلة أولى من تعطيل قول النبي صلى الله عليه وسلم " (٢) .

وقد سبق بيان عدم صحة الحديث الذي يعول عليه الآمدي ، وإذا لم يكن الحديث صحيحاً فلا إشكال ، ولا تعارض ، ولا تعطيل .

ونرى ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) يستبعد وقوع " ما " على آحاد من يعقل من المذكرين والمؤنثات في النصوص التي يوردها المجيزون فيقول : " وهذا كله لا حجة فيه لاحتمال أن تكون " ما " مصدرية " (٣) .

ثم يسوق اعتراضاً فيقول : " فإن قيل : إن حمل هذه الآيات على ما ذكرت لا يجوز لأن في " طحا " و " بنى " و " سوى " مضمراً فاعلها ، وليس للضمير ما يعود عليه إلا " ما " وإذا كانت كذلك تبين أنها ليست بمصدرية ؛ لأن

(١) الإحكام ١٩٣/٢ .

(٢) المرجع نفسه ٣٤/٣ .

(٣) شرح الجمل ١٧٤/١ .

المصدرية حرف^(١) ، والضمير إنما يعود على الاسم فالجواب : إن الضمير يعود على اسم الله تعالى وإن لم يتقدم ذكره لأنه قد علم أن طاحي الأرض ، وباني السماء ، ومسوي الأرض ، إنما هو الله ، فيكون من قبيل الضمير الذي يفسره ما يفهم من سياق الكلام^(٢).

أرأيت هذا التكلف والمبالغة في التأويل؟!

فإذا كان الضمير يعود على اسم الله تعالى فلماذا لا تكون " ما " بمعنى " مَنْ " وتطلق على العالم وإن لم تكن أصلاً فيه ؟!

أضف إلى ذلك أنه بالمقارنة بين اللغات السامية اتضح أن كلاً من " مَنْ " و " ما " يعودان إلى أصل أحادي الحرف ، هو الميم ، وأن الأداة " مَنْ " و " ما " كانتا تدلان على معنى واحد دون تفريق بين العالم وغيره ، ثم أخذت اللغات السامية تتوسع بأصل هاتين المادتين بنيةً ومعنىً ، فخصت " مَنْ " بالعالم و " ما " بغير العالم ، وظلت استعمالات من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ

ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: الآية ٢٢] شواهد من آثار مرحلة ما قبل اقتسام المعنى بين هاتين الأداةين .^(٣)

وابن قتيبة يشير إلى شيء من هذا بقوله : " ما " و " مَنْ " أصلهما واحد فجعلت " مَنْ " للناس و " ما " لغير الناس .^(٤)

(١) هذا عند البصريين ، وذهب الأخفش وبعض الكوفيين إلى القول باسميتها ، ينظر رصف المباني ص ٣٨١ .

(٢) شرح الجمل ١/ ١٧٤ .

(٣) ينظر : بحوث في الاستشراق واللغة ص ٢٨ و ٢٩ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٥٣٣ .

ملخص البحث :

هذا البحث يدرس مسألة إمكان إطلاق " ما " الموصولة على " العالم " ولا خلاف بين أهل اللغة في أن " ما " في أصل وضعها إنما وضعت لغير العالم في مقابل " مَنْ " التي للعالم .

ولقد تباينت آراء النحويين في هذه المسألة فمنهم من يرى أن " ما " لا تخرج عما وضعت له من الإبهام ، وإن خرجت لجئ إلى التأويل ، ونسب أبو حيان هذا إلى أصحابه البصريين .

ومنهم من يرى تفسيرها بما وضعت له ، أو يحملها على معنى " مَنْ " أو على المصدرية كالفرء وأبي عبيدة ومكي وغيرهم .

ومنهم من يرى أنها لا تقع بمعنى " مَنْ " إلا في شذوذ ، وهو أبو جعفر النحاس ومنهم من بالغ في البحث عن التأويل ، وظهر هذا جلياً عند ابن جني والسهيلي والداميني .

ومنهم من وضع معايير لاستعمالها بمعنى " مَنْ " ومن تلك المعايير إرادة الجنس ، أو الصفة ، أو اختلاط العالم بغيره ، أو إرادة أنواع من يعقل ، أو الحمل على المقابلة والمشاكلة ، أو الإبهام ومنهم : المبرد وابن السراج والفارسي وابن جني وابن مالك وابن هشام وغيرهم .

ومنهم من يستنتج من كلامه جواز وقوع " ما " على العالم قليلاً كابن مالك والرضي والبعلي ، ونسب أبو حيان هذا إلى أبي عبيدة وابن درستويه ومكي وابن خروف .

وابن خروف نسب القول بهذا إلى سيبويه والمحققين .

ومع تباين الآراء يميل الباحث إلى رأي ابن مالك ومن وافقه ، فهو الرأي الوسط الذي لم يخرج " ما " عن أصل وضعها ولم يبالغ في التأويلات .

قائمة المراجع :

- ١- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ، تحقيق : أحد الأفاضل ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة ١٣٨٧هـ .
- ٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د: مصطفى النماس (ط - ١) ١٤٠٨هـ مطبعة المدني .
- ٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ، تحقيق : عبد القادر عطا ، مطبعة السعادة ، الناشر : مكتبة الرياض الحديثة .
- ٤- أسباب النزول للواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان (ط - ١) ، ١٤٠٢هـ .
- ٥- الأصول في النحو لابن السراج ، تحقيق د: عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة، (ط - ١) ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .
- ٦- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس ، تحقيق د: زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني بغداد ، ١٣٩٧هـ .
- ٧- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجليل ، (ط - ٥) ، ١٣٩٩هـ .
- ٨- بحوث في الاستشراق واللغة تأليف أ.د: إسماعيل أحمد عمارة دار البشير ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (ط - ١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- ٩- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، عناية : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية، المدينة المنورة ، (ط - ٣) ، ١٤٠١هـ .
- ١٠- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل لأبي حيان ، تحقيق د: حسن هنداي ، دار القلم ، دمشق ، (ط - ١) ، ١٤٢٢هـ .
- ١١- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك ، تحقيق : محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، مصر ، ١٣٨٧هـ .

- ١٢- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد للدمايني ، تحقيق د: محمد المفدى (ط - ١) ، ١٤٠٣هـ .
- ١٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، (ط - ٤) ، دار الأندلس بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .
- ١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ، تحقيق د: عبد الله التركي بالتعاون مع دار الهجر (ط - ١) ١٤٢٢هـ .
- ١٥- الجمل في النحو للزجاجي ، تحقيق د: علي توفيق الحمد ، (ط - ١) مؤسسة الرسالة - بيروت ، دار الأمل الأردن ، ١٤٠٤هـ .
- ١٦- حاشية الصبان على شرح الأشموني ، دار الكتب العلمية .
- ١٧- الخاطريات لابن جني ، تحقيق : علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، (ط - ١) ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـ .
- ١٨- دراسات لأسلوب القرآن الكريم تأليف : محمد عبد الخالق عضيمة (ط - ١) ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٩٢هـ .
- ١٩- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ، تحقيق د: أحمد محمد الخراط ، دار القلم دمشق ، (ط - ١) ، ١٤١٠هـ .
- ٢٠- سر صناعة الإعراب لابن جني ، دراسة وتحقيق د: حسن هندراوي ، دار القلم ، دمشق (ط - ١) ١٤٠٥هـ .
- ٢١- سنن أبي داود ، عناية : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، الناشر : دار إحياء السنة النبوية .
- ٢٢- شرح التسهيل لابن مالك ، تحقيق د: عبد الرحمن السيد و د: محمد المختون ، هجر للطباعة والنشر ، (ط - ١) ، ١٤١٠هـ .
- ٢٣- شرح جمل الزجاجي لابن خروف ، تحقيق د: سلوى محمد عمر عرب جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٩هـ .

٢٤- شرح الجمل لابن عصفور ، تحقيق د: صاحب أبو جناح ، بغداد ، ١٤٠٠ هـ .

٢٥- شرح الكافية الشافية لابن مالك ، تحقيق د: عبد المنعم هريدي ، (ط - ١)
دار المأمون للتراث ، من منشورات مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى .
١٤٠٢ هـ .

٢٦- شرح الكافية للرضي ، عناية : يوسف حسن عمر .

٢٧- شرح المفصل لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت ، مكتبة المتنبى ، القاهرة .

٢٨- صحيح مسلم ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان (ط - ١) ١٤٢١ هـ .

٢٩- الفاخر في شرح جمل عبد القاهر تأليف محمد بن أبي الفتح البعلبي ، تحقيق د:
مدوح محمد خسارة ، (ط - ١) الكويت ، ١٤٢٣ هـ .

٣٠- فتح القدير للشوكاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠١ هـ .

٣١- الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ، بهامش الكشاف
للزحشري ، دار الريان للتراث ، القاهرة (ط - ٣) ١٤٠٧ هـ .

٣٢- الكتاب لسيبويه ، المطبعة الأميرية ببولاق ، (ط - ١) ، ١٣١٦ هـ .

٣٣- الكشاف للزحشري ، عناية : مصطفى حسين أحمد ، الناشر : دار
الريان للتراث ، القاهرة ، ودار الكتاب العربي ، بيروت (ط - ٣) ،
١٤٠٧ هـ .

٣٤- لسان العرب لابن منظور ، دار صادر ، بيروت .

٣٥- مجاز القرآن لأبي عبيدة ، عناية د: محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي
- مصر .

٣٦- مجمع الأمثال للميداني ، عناية : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار
القلم بيروت .

- ٣٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .
- ٣٨- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ، تحقيق: علي النجدي ناصف و د: عبدالفتاح شليبي ، دار سزكين للطباعة والنشر (ط - ٢) ١٤٠٦هـ .
- ٣٩- المسائل المشككة " البغداديات " لأبي علي الفارسي ، تحقيق : صلاح الدين عبد الله السنكاوي ، مطبعة العاني ، بغداد .
- ٤٠- مسند الإمام أحمد، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ .
- ٤١- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق : ياسين محمد السواس دار المأمون للتراث ، دمشق
- ٤٢- معالم التزويل للبغوي ، عناية : محمد النمر وزميله ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، (ط - ٤) ، ١٤١٧هـ .
- ٤٣- معاني القرآن للفراء، عالم الكتب ، بيروت ، (ط - ٢) ، ١٩٨٠م .
- ٤٤- معاني القرآن للأخفش ، تحقيق د: هدى قراعة ، (ط - ١) ، مطبعة المدني، القاهرة ، ١٤١١هـ .
- ٤٥- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، تحقيق : عبد الجليل شليبي ، (ط - ١) عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٨هـ .
- ٤٦- المعجم الكبير للطبراني ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي ، دار إحياء التراث العربي ، (ط - ٢) .
- ٤٧- المقتضب للمبرد، تحقيق الشيخ محمد عبد الخالق عضيمه، عالم الكتب بيروت .
- ٤٨- نتائج الفكر في النحو للسهيلي ، تحقيق د: محمد إبراهيم البنا ، دار الرياض للنشر والتوزيع .